تعقيب على بحث د/ الشويعر عن كتاب "نزهة المشتاق"

بقلم الأستاذ عبدالله العبد الرحمن البسام

أعجبني البحث الواسع الضافي الذي دبجته يراعة الدكتور محمد بن سعد الشويعر عن مخطوطة خال والدي الشيخ: عبدالله بن محمد البسام التاريخية.

والإحاطة بالبحث من جميع جوانبه هو دأب الدكتور في مقالاته وبحوثه فهي ـ دائماً ـ بحوث شاملة لا تذر من شيء أتت عليه إلا وفته إيضاحاً وتبياناً، وأوسعته استقصاء وتنقيباً حتى لا يدع لمن بعده مجالاً ولا مقالاً كأنه يريد أن يؤيد ما قاله الأولون:

هل غادر الشعراء من متردم؟.

وهذا الشمول في المقال والتقصي في البحث صاحبه أسلوب ممتع يشدك إلى تلاوته، ومقنع يقسرك ببراهينه إلى الخضوع والتسليم، وهو إلى إقناعه وإمتاعه محلق بخيال لذيذ تذهلك متابعته عن هفواته وتنسيك مفاجآته عن مقاصده ومراميه، حتى ينتهي بك المطاف إلى نهاية المقال.

وعرض العلم بأسلوب الأدب قلّ أن يتاح لكاتب، وإنما المواهب الفذة تجمع الضدين وتخضع النقيضين كما خرقت العبقرية إجماع نقاد البلاغة من أن النثر والشعر لا يوهبان لواحد فجاء ابن زيدون فخرق هذا الإجماع حينما ملك زمام الشعر البديع، وناصية النثر الرفيع.

ولست أنا والدكتور بقادرين على تقارض المدح والثناء. فحكام عكاظ لنا بالمرصاد، فلن يدعوا أحدا يعدد قدره.

وبعد أن قرأت المقال في المرة الأولى للمتعة واللذة، عدت إلى قراءته ثانية للثواب على الحسنات والعقاب على الهفوات وأخف عقاب عندنا ـ معشر القضاة ـ هو العتاب.

والنقد إذا قصد به وجه الحق فهو كمال للمقال ووفاء للباحث ونصح للقراء وأمانة للتاريخ. ولذا فسأقف من الدكتور موقف الحاتمي من المتنبي وطه حسين من شوقي لأحاسبه على الدقيقة والجليلة.

ويبدأ النقاش بعتب الناقد على الكاتب ذلك أن الدكتور كتب هذا البحث الذي شهدت مراجعه أنه لم يترك مؤرخاً إلا سأله ولا كتاباً إلا قرأه. وأنا صاحبه لم أطلع عليه إلا بعد أن شاع وذاع وملأ الأسماع وخلدته ـ الدارة ـ في مجلتها التي قراؤها هم حملة التاريخ ونقلة الأخبار وأوعية العلم، فهل بيني وبين الدكتور ما بين أبي فراس وابن عمه من ملك قيصر، أو ما بين الخزاعي وفراخه من المهامه الفسح؟ فأنا أقرب إليه من جليسه بهاتف يطوي البيد طياً ويمر بها كلمح البصر، فإذا صوته يهتف بمكتبي بلا طرق ولا استئذان فيساورني بها جسه. على أن الشقة لو بعدت والمسافة لو طالت فالرحلة في العلم هي دأب الباحثين والرواة النابهين.

فلقد رحل الإمام أحمد بن حنبل من بغداد إلى صنعاء ليأخذ حديثاً عن عبد الرزاق. وطلب الخليفة الواثق المازني من البصرة ليحكم في إعراب بيت لحن فيه النحاة الحاضرون مغنية أبت أن تنقاد لنقدهم، لأنها غنته كما روته عن شيخها بكر بن محمد المازني، وكان الأصمعي يترك حدائق دجلة والفرات ويجوب القفار الملس يتبع الأعراب في مضاربهم ليأخذ عنهم شعرهم ونثرهم وطرائف أخبارهم وملح أسمارهم. ولقد عاش

الأزهري برهة من الزمن في مفازات الصمان يتلقى صحيح اللغة من أفواه الرعاة والسقاة. أفبعد هذا يغلب ترف الحضارة ونضارة العيش سلالة البذل القناعيس من أن يتصل بأخيه، ليعرض عليه بنات فكره وحبات قلبه وذوب قلمه؟ ليعينه على جلوتها ويؤازره على صقلها.

فلقد كان زهير يقول القصيدة في أربعة أشهر، ويهذبها في أربعة، ويعرضها على الشعراء في أربعة، ثم يذيعها حتى اشتهر عند أرباب البلاغة أن أحسن قصائد زهير حولياته.

فما بال داء العصر أصابنا حتى في عصارة أفكارنا مع أن الشورى أدب القرآن ودستور الإسلام ومنهج السلف الصالحين؟

ألم يعرض البخاري صحيحه على أحمد؟ ويستشير الكميت في شعره الفرزدق، وإذا عتبت على الدكتور هذا العتب الذي كله مقة، فلست أزعم أني النابغة في قبته، أو قيس ابن عاصم في حبوته. وإنما الحديث عن البسام وأنا منهم، وأهل مكة أدري بشعابها.

وهذا أوان البدء في المقصود بحول الملك المعبود:

قال الدكتور في ص ٣٦ من مجلة ـ الدارة ـ أما الشيخ عبدالله البسام فيرى أن مؤرخنا ولد في عنيزة عام (١٢٦٨ هـ) .... وذكر بأن عمره كان أربع سنين عندما قتل والده فإن الأمر يحتاج إلى إيجاد رأي ثالث عن تاريخ ولادته وهو عام (١٢٧٥ هـ) اهـ خلاصته.

وأعقب فأقول: ان هذه النتيجة الصحيحة حصلت من قولي أن معركة المطر عام ـ ١٢٧٩ هـ ـ وعمر المؤرخ حينذاك أربع سنين فكانت ولادته (١٢٧٥ هـ) هو الحق في صحة ولادة المؤرخ نقلاً عن مصادر متواترة لا يتطرق الشك إليها.

أما أنه جاء في كتاب ـ علماء نجد ـ أن ولادته (١٢٦٨ هـ) فذلك ذنب تطاير الأرقام أمام صاف الحروف وهي آفة تحريف الكلم عن مواضعه ولايزال بالمسودة عندي (١٢٧٥ هـ) وأحب أن أستطرد مع الدكتور في هذا الباب فأقول: إن الدكتور باحث

وطريق الباحثين إذا تعارضت النصوص عندهم إن كانوا مفسرين أولوا المتشابه إلى المحكم وإن كانوا فقهاء حملوا المبهم على الظاهر، وإن كانوا مؤرخين رجحوا بالقرائن القوية.

فالدكتور هو الذي أحرج نفسه وجعل موقفه من حقيقة ولادة المؤرخ كجحر الضب وأن لديه من الأدلة والبراهين ما هو أوضح من (الخط السريع).

وقال الدكتور في ص ٤٠ ـ إن البئر التي قيلت فيها القطعة الشعرية غير بستان المهيرية قلت:

وهذا استنباط من الدكتور لم يخرج به ماء فالبئر هي للبستان المذكور لما ملح ماء بئره الأولى بدعوا البئر الثانية.

وفي ص ٤٢ ـ أهدى إلينا الدكتور ـ مشكوراً ـ طائفة من العلماء ممن ينسبون إلى البسام. وعليه فإذا جعل الدكتور هؤلاء الفضلاء من أسرتنا فليضف إلينا أمثالهم وأمثالاً مع أمثالهم من أسر ـ قبيلة الوهبة ـ كآل فيروز وآل بجادي ـ وآل جاسر ـ وآل فهيدان ـ وآل عثيمين ـ وآل مقبل ـ والقضاة والحصانا والخراشا ممن ينسبون إلى بسام بن عقبة أو بسام بن عساكر أو بسام ابن منيف من الأسر التي هي من آل بسام ولكنها انفردت بالقاب خاصة.

وآل بسام أسرة المؤرخ الذين يتحدث عنهم الدكتور والمخصوصون عند أنفسهم وعند الناس هم آل البسام سكان عنيزة ممن يجمعهم جدهم ـ حمد بن ابراهيم البسام ـ الذي قدم عنيزة من حرمة عام ١١٧٥هـ وتفرعت عنه هذه الذرية، وحمد بن ابراهيم المذكور هو الجد الثاني للمؤرخ ـ عبدالله بن محمد بن عبد العزيز بن حمد البسام ـ وفي ص ٤٣ ـ قال الدكتور: إنني سهوت عن ترجمة للمؤرخ: محمد بن حمد البسام ـ مؤلف كتاب ـ الدرر المفاخر في أخبار العرب الأواخر ـ

وأنا لم أسمه عن المؤرخ المذكور فإني أول من اطلع على كتابه الذي جاءتني صورته من بغداد قبل أن يعثر عليه في المتحف البريطاني.

أما الذي حملني على إهماله فهو عدم تحقق عن نسبه. ولازلت لم أصل إلى حقيقة أمره. فمن قرأ كتابه يستبعد أن يكون من الدرعية ثم انتقل منها إلى ثادق، ثم انتقل إلى

العراق للقرائن الآتية:

الأولى ـ أنه يلقب الدولة السعودية بالوهابية وهذا النبز لا يكون من نجدي موال للدعوة السلفية وإنما يكون من عدوهم على أنه في حروب محمد علي وابنيه مع آل سعود هو تحت الراية السعودية ويثنى عليهم ويمجدهم ويذكر أئمتهم بألقاب العظمة.

الثانية ـ إنه يعبر ـ بسيدنا الحسين ـ وأهل نجد لا يسودون أحداً في خطابهم ولعل المذكور تأثر بإقامته بالعراق.

الثالثة ـ أنه أهدى كتابه إلى المعتمد البريطاني بالعراق بعبارات تبجيل له بأنه السيد السعيد فخر أقرانه وعمدة زمانه شهاب الملة العيساوية وقدوة الدولة الانقريزية. وأهل نجد لا يوالون الكفار هذه الموالاة، لا سيا في تلك الأيام التي هي شباب الدعوة.

الرابعة ـ قدّم القبائل القحطانية في كتابه وعني بها عناية لم يولها القبائل العدنانية.

الخامسة ـ لم يذكر قبيلة تميم إلا عند ذكر قبائل العراق ولعل عذره أنه ليس لتميم في نجد بادية.

السادسة ـ أنه لم يوثق نسبه بشيء من البينات عدا ما كتبه: المعتمد البريطاني ـ ريتش ـ من نسبة الكتاب إلى محمد البسام التميمي النجدي. وعدا ما ذكره المهندس: أحمد وصفي زكريا في كتابه ـ عشائر الشام ـ من أن اسمه ـ محمد بن حمد البسام ـ وأنه توفي بمكة عام ١٢٤٦ هـ وهذا هو كل ما اعتمد عليه محقق الكتاب العجمي وهو أيضاً ـ مرجع الأستاذ الزركلي في أعلامه وبسبب هذا الغموض وعدم التحقق عنه لم أترجم له.

قلت: وإنه لمن الغريب جداً أن الأستاذ المهندس: أحمد وصفي زكريا صاحب كتاب ـ عشائر الشام ـ الذي عاش حتى ١٣٨٤ هـ وهو بحاثة منقب، لما عثر على كتاب ـ الدرر المفاخر ـ لمؤلفه محمد البسام سأل بعض أعيان أسرتنا المقيمين تجاراً في سوريا عن محمد البسام الذي عاش كما جاء في تاريخه في النصف الأول من القرن الثالث عشر حيث خاض المعارك التي دارت في وادي الصفراء بين جيوش آل سعود وجيوش الترك بقيادة طوسون.

ولما سأل عن محمد البسام أفيد بما هو معروف عندهم أن محمد بن حمد البسام توفي بمكة عام ١٢٤٦هـ.

وجدي الثالث هو: محمد بن حمد البسام ــ توفي بمكة حاجا عام (١٢٤٦ هـ) من وباء عام أصاب الحجاج ذلك العام.

فالمهندس: أحمد وصفي ــ استقر في ذهنه هذا فعزا التاريخ إليه.

وجدنا ــ محمد بن حمد البسام ــ أشهر أهل نجد في زمنه بالغنى والإحسان ولكنه ليس بعالم ولا مؤرخ، ومن المتيقن أنه لا يوجد في أسرتنا في تلك الأيام من اسمه ــ محمد ابن حمد البسام ــ غير جدي هذا. والقصد أني حتى الآن لم يظهر لي حقيقة هذا المؤرخ فإن وجدت شيئاً يكشف الغطاء ترجمت له في الطباعة التالية لعلماء نجد إن شاءالله تعالى.

وبناء على ما تقدم ــ حسب التعبير القضائي ــ فإنه يجب على الدكتور محمد الشويعر أن يسحب تهمته لي بالغفلة؛ وإلا عاد إليه قلم أفتك من سيف الحجاج.

وفي ص ــ ٤٤ ــ قال الدكتور نقلاً عن القاضي.

إن جدنا أحمد بن محمد بن بسام هو المرجع الأول لمن أرخ لنجد، وبأن الكل ينقلون عنه. قلت:

وهذا من المبالغات الباردة التافهة التي أضافها القاضي إلى ما نقله عن كتابنا ــ علماء نجد ــ.

فتاريخ جدنا ــ أحمد ــ نبذة صغيرة أرخت لفترة قدرها خمسة وعشرون سنة بفقرات مقتضبة إن نقل عنها شيء فلا تعد مرجعاً لكل من أرخ لنجد ولا أن الكل ينقلون عنها لقصر مدتها واقتضاب أخبارها.

والدكتور في ص ــ ٤١ ــ إن لم يكن أغضب علماء اللغة كثيراً فقد امتلأ عليه غيظاً علماء الفرائض في إطلاقه ــ الأولاد ــ مريداً بهم الأبناء.

أما في ص ــ ٦١ ــ فقد استثار الباحث همة الدكتور عبدالله الصالح العثيمين في تحقيق ــ المخطوطة والدكتور عبدالله العثيمين سمع الغضبة المضرية من أحفاد المؤلف على شربية حينا اعتدى على الكتاب فنسخه ووزع بعض نسخه. ورحم الله من اتعظ بغيره.